التأثيرات الحضارية لإقليم توات في بلاد السودان الغربي خلال العصر الوسيط

أ. عباس عبد الله.
أستاذ مساعد قسم – أ–
قسم العلوم الإنسانية جامعة أحمد دراية أدرار
البريد الإلكتروني: abbesabdallah61@yahoo.com

ملخص:

إن قدوم عدد كبير من التجار والفقهاء والدعاة التواتين من الشمال بعث نشاطاً ملحوظاً في إفريقيا الغربية إبان العصور الوسطى، وقد أدى هؤلاء واجبهم في نشر الدين الإسلامي والثقافة العربية في ربوع تلك المنطقة، ولقد التحق كثير منهم بالملوك والأمراء وعملوا في خدمتهم أو قدموا إليهم الخبرة والثقافة وحببوا إليهم الدين الجديد، ويقص علينا التاريخ نتفاً من أخبار عبد الكريم المغيلي وبهذا نستطيع أن نفسر إيمان بعض الملوك والأمراء بالدين الحنيف قبل أن يعتنقه سواد الشعب الذي عمل في ما بعد على تقليد الملك، ولما قلد الشعب حكامه في اعتناق الدين الجديد شهدت إفريقيا الغربية نشاطاً عظيماً وحماساً عجيباً من أجل الجهاد وأقام بذلك السلطان موسى صاحب مالي في القرن الرابع عشر ميلادي والسلطان محمد الحاج صاحب غاو في أواخر القرن عشر ميلادي ثم بعده أمراء السنغال.

Abstract

The region of Touat was a linking point between the North of the Sahara and its South, and a major economic and cultural centre in the Sahara. Thanks to its geographical position, it played an important role in linking the Islamic Maghrib with Western Sudan. These commercial and cultural ties flourished during the middle Ages under the context of

Trans-Saharan trade and continued up to the colonial era. The peaceful atmosphere that reigned in the region encouraged people to move northward and southward in frequent journeys seeking for profit and knowledge. This situation gave birth to an elite among the people of Touat which reached high degrees of education in different disciplines locally and in Western Sudan. Economically, the region of Touat served as an intermediate trade centre through which hundreds of caravans used to cross northward to Sijilmassa, Fezzan, Tafilelt, Wargla and Ghdames, and southward to Timbuktu, Gao and Djenne.

مقدمة:

ذكرت البحوث المختلفة أن علماء المنطقة كانوا يتميزون بخفة الحركة ، وبعدم الاستقرار في مكان واحد، وأن جهادهم السلمي في الدعوة إلى الإسلام ونشر تعاليمه كان العامل الرئيسي في فتح قلوب الأفارقة الوثنين على الإسلام ، ودخولهم فيه، وقد ذكر صاحب كتاب " تعريف الخلف "، أسماء أكثر من عشرين شخصية تواتية من أهل الصلاح والولاية والفقه ،كان منهم أساتذة بجامع القرويين وبتونس، وبغرب إفريقيا .

وكان دور الفقهاء كبيرا منذ تأسيس مدينة تمبكتو في القرن (الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي) التي أصبحت فيما بعد مقصدا للتواتين الداعين للإسلام، والعلماء منهم على الخصوص وكان بعضهم أئمة بمساجدها ، ورجال الفتوى يتقرب إليهم السلاطين الذين كانوا يدفعون لهم رواتب ، وأعد توات مثلاً من أمثلة المجتمعات البدوية العربية القليلة، التي استطاعت أن تقيم حياة متميزة، في اتصالها الإنساني المتنوع، مع المجتمعات الإفريقية، وفي العلاقات الفريدة التي نسجتها معها من خلال الصلات الاقتصادية والاجتماعية والدينية والثقافية، مما أعطاها صورة فريدة، وخصوصية في بناء حياتها التي أبدعت مثلها وصنعت تقاليدها، في مواجهة المستجدات، وألوان الحضارات المختلفة التي تعرضت لها وتظل منطقة توات في كل مكان، مستودعاً أمينا للأفكار ولنظم

الحياة التقليدية ولهذا فهي تحتفظ بالأصالة، وبالنقاء إلى جانب الإبداع. ومن هنا تمثل هذا التأثير فيما يلي:

1. تأثيرات العلماء والفقهاء.
2. تأثير التجار المسلمين.
3. تأثير الهجرات الجماعية.
4. تأثير الطرق الصوفية و المتصوفين.
5. تأثير الزوايا.

أولا: تأثير العلماء والفقهاء.

كان لعلماء توات ومشايخها في كل العصور القديمة والحديثة دور متميز في نقل الإشعاع الثقافي الإسلامي إلى الشعوب السمراء، إذ يؤكد أغلب المؤرخين أنه بجهود العلماء تغلغلت الثقافة العربية في إفريقيا الغربية (وأصبحت اللغة العربية لغة التخاطب في المراسلات الرسمية للدول الإفريقية الإسلامية بالإضافة إلى أنها كانت اللغة المستعملة في التجارة التي كانت بأيدي العرب، وكان للعرب في عاصمة غانا القديمة (كمبي صالح) اثنا عشر مسجدا ألحق لكل مسجد مدرسة لتعليم اللغة والفقه الإسلامي ثم أصبحت اللغة العربية لغة التدوين في شتى إنحاء القارة، لقد توسعت اللغة العربية فامتزجت بلغات الفلان (ينتشرون في أنحاء غرب إفريقيا، والبمبارا في مالي والولوف بالسينغال وغامبيا) والصوننكية ولغات النيجر الهوسا، فقد اتجه حملة العلم من الأفارقة نحو الكتابة لتبليغ أحكام الإسلام وعلومه فكتبوا باللغة العربية،واستخدموا الحرف العربي للكتابة لغتهم، وساعدت اللغة العربية والإسلام في انتشار الشعر في اللغات الإفريقية المكتوبة بالعربية أو لغات السونغاي والماندينغ والجرمة والفلان[1]. كما كان لتجارة الكتب[2]دور في ذلك

[1]–خليل النحوي، بلاد شنقيط، المنظمة العربية للتربية و الثقافة، تونس، 1987 م، ص 262.

[2]–كانت قورارة و هي إحدى مدن إقليم توات تملك مكاتب تضم 1500 مجلد ، أنظر :
Echallier, op.cit, p.7.

حيث كان بيع الكتب يعود عليهم بالفائدة أكثر من باقي البضائع[1]، التي كانت توفد إليهم من إقليم التوات.

لقد انتشرت المدرس القرآنية ومعاهد العلم انتشارا كبيرا في كانم وبورنو بفضل مجهودات العلماء المهاجرين من المغرب خاصة من توات لقد شهد القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) حركة بعث الثقافة العربية الإسلامية شملت جميع أرجاء إمبراطورية البرنو،فقد ظل العلماء المتجولون يقومون (بمهمة كبيرة) بنشر العلم، كما أن تدفق الكتب والمؤلفات الأدبية من المشرق والمغرب العربي، أدى إلى انتشار الدراسات وتعميقها.

إن التعليم في بلاد كانم برنو[2]، قد بلغ مستوى رفيعا من التقدم إبان القرنين (الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين) ويعزي ذلك في معظمه إلى الزيارات المتكررة التي قام بها للمنطقة عدد من العلماء من توات وطرابلس ومصر، ويتحدث مخطوط مطول منسوب إلى القرن الخامس عشر الميلادي عن رسالة بعث بها ملك برنو «كداي – KADAI» سنة (1440م– 1447م) إلى بعض العلماء البارزين من توات يطلب منهم إرسال بعثات علمية إلى برنو[3] ومن العلماء الذين نبغوا في بلاد البرنو وأثروا في الحياة الاجتماعية والسياسية الشيخ محمد الطاهر الفلاني التواتي. لقد ألف هذا الشيخ كتابات عديدة في ميادين الفقه وعلم الكلام والسياسة وترجم له صاحب " إنفاق الميسور"[4] على انه (كان نسيجا وحده عالما بالمنقول والمعقول) صالحا، تقيا، بارعا، والحاصل انه بلغ مبلغ الرجال، اخذ

[1]-Echallier, Ibid, p.7.

[2]– عن مملكة كانم و برنو، انظر: عبد القادر زبادية، الحضارة العربية و التأثر الأوروبي في إفريقيا الغربية و جنوب الصحراء. ص 29.

[3]– أحمد محمد كاني، الجهاد الإسلامي في غرب إفريقيا، طبعة الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، 1987، ص 21.

[4]–محمد بيلو بن عثمان بن فودي، إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور، دار مطابع الشعب، القاهرة، 1964 م ص 87.

العلم عن الشيخ البكري[1] ثم رجع لموضعه، وتصدر للتدريس ثم حمله السلطان إلى حصن برنو وأسكنه فيها، وبنى له دارا وولاه خطه، وله تواليف وأشعار منها نظمه على البكري، وشرحه ونظمه على حكم ونظمه الدر اللوامع ومنار الجامع في التصريف[2].

ومن العلماء الذين اشتهروا في هذا البلد الشيخ العاقب بن عبد الله الانصمني المسوفي وكان من علماء تكدة النابهين الذين اشتغلوا بالعلم والتأليف وقد تتلمذ على يد الشيخ المغيلي، فقد أسهم العلماء التواتين في مد مناطق السودان الغربي بالأفكار والتعاليم الإسلامية كل حسب طريقته الخاصة،فمنذ تأسيس مدينة تمبكتو في القرن الخامس هجري وهي مقصد لكثير من العلماء وفقهاء توات الذين استقروا بها[3] ويذكر السعدي صاحب كتاب (تاريخ السودان) أن الشيخ أبا القاسم التواتي كان من أشهر أئمة جامع السنكري، أنه كان محل احترام وتقدير الجميع حتى أن السلطان (أسكيا الحاج موسى) كان يحرص بعد كل صلاة على الملاقاة به للتسليم عليه والتبرك به[4].

وكان أول من صلى بالناس في الجامع الكبير من البيض هو جد جدة السعدي عبد الله البلبالي الذي يقول فيه صاحب كتاب الفتح الشكور «كان رحمه الله تعالي من عباد الله الصالحين زاهدا ورعا لا يأكل إلا من عمل يده و ظهرت له كرمات وبركات وهو من أهل القرن التاسع الهجري ومن علماء توات و أولياءها »[5]،فقد ذكر صاحب كتاب الفتح الشكور أسماء أكثر من أربعين شخصية تواتية

---

[1]– الشيخ البكري بن عبد الكريم، المتوفي سنة 1133هـ / 1720م، مؤسس الطريقة البكرية و هي فرع من القادرية، غرب مدينة تمنطيط .

[2]– أحمد محمد كاني، المرجع السابق، ص 22.

[3]– أحمد حسن، محمود، الاسلام و الثقافة العربية في إفريقيا، القاهرة 1963، ص 236.

[4]– السعدي، عبد الرحمن بن عبد الله ، تاريخ السودان، طبعة هوداس، 1964، ص 222.

[5]– ابن عبد الله الطالب محمد أبي الصديق البرتلي ، الفتح الشكور في معرفة اعيان علماء التكرور ، تحقيق ، الكتاني و محمد حجي ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981م، ص 97 فما بعدها .

من أهل الصلاح والولاية والفقه كان لهم تأثيرا كبيرا في بلاد التكرور نذكر منهم على سبيل المثال سيدي مولاي زيدان أحد أحفاد مولاي عبد الله الرقاني الذي أوصل إلى بلاد التكرور أوراد الطريقة القادرية و يذكر شخصية الحاج احمد بن حاج لامين الملقب بالتواتي الغلاوي[1] ويقول عن التواتي الغلاوي إنه «كان قائما بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر انتفع على يديه كثيرا من المهاجرين ناصر السنة حتى كاد أن يقيم الحدود في بلاده لأنه مسموع الكلمة عند أهل بلاده وكان من أهل الهمم العالية وهو شيخ الركب من أرضنا– بلاد التكرور– حتى يصل إلى توات فيكون الأمر لأبي نعامة–له شرح عجيب مفيد على نظم ابن سعيد السوسي (إشراق البدر على عدد أهل بدر) سماه بكشف الغمة في نفع الأمة (ت 1157م) بفزان »[2] ويذكر كذلك شخصية تواتية كان لها تأثيرا كبيرا في المنطقة وهو سيدي أبو القاسم التواتي، كان صالحا خبيرا،وكان إمام المسجد الجامع في تنبكت ،ذا كرمات وبركات، وهو الذي ابتدأ قراءة [الختمة] في المصحف بعد صلاة الجمعة.فحبس أمير المؤمنين أسكيا الحاج تابوتا فيه ستون جزء من المصحف على ذلك الجامع لأجل تلك الختمة (ت 922م)[3].

إن قدوم عدد كبير من التجار والفقهاء والدعاة العرب المسلمين من الشمال بعث نشاطا ملحوظا في إفريقيا الغربية إبان العصور الوسطى،وقد أدى هؤلاء واجبهم في نشر الدين الإسلامي والثقافة العربية في ربوع تلك المنطقة،ولقد التحق كثير منهم بالملوك والأمراء وعملوا في خدمتهم أو قدموا إليهم الخبرة والثقافة وحببوا إليهم الدين الجديد.ويقص علينا التاريخ نتفا من أخبار عبد الكريم المغيلي وبهذا نستطيع أن نفسر إيمان بعض الملوك والأمراء بالدين الحنيف قبل أن يعتنقه سواد الشعب الذي عمل في ما بعد على تقليد الملك،ولما قلد الشعب حكامه في

[1]–ابن أبي الصديق البرتلي، نفس المصدر، ص97.

[2]–ابن أبي الصديق البرتلي، نفس المصدر، ص97.

[3]–ابن أبي الصديق البرتلي، المصدر السابق، ص97.

اعتناق الدين الجديد شهدت إفريقيا الغربية نشاطا عظيما وحماسا عجيبا من اجل الجهاد وأقام بذلك السلطان موسى صاحب مالي في القرن الرابع عشر ميلادي والسلطان محمد الحاج صاحب غاو في أواخر القرن الخامس عشر ميلادي ثم من بعده أمراء السينغال.[1]

كما احتاج دعاة الإسلام إلى الملوك ليكونوا سنداً لهم والذين كانوا بدورهم يحتاجون إلى تأييد هؤلاء الدعاة والفقهاء لإعطاء سلطتهم صفة شرعية،ويستفيدون من خبراتهم وثقافاتهم الواسعتين.

فقد كان العلماء والدعاة التواتيين يجوبون البلاد الإفريقية المجاورة فيستقطبون من يلقون بالقيم والأخلاق الفاضلة والشعائر التي يؤدونها وبأحاديثهم إلى الناس وتعليمهم ووعظهم إياهم وكان الأمراء الأفارقة الذين يعتنقون الإسلام يتخذون شيوخا من أهل توات يعلمونهم أحكام الدين ويقرئونهم القرآن ويؤمون بهم الصلاة ويبذلون النصح للمسلمين.

ثانياً :تأثير التجار المسلمين:

وإذا كان العلماء قد أسهموا بالقسط الأوفر في تغيير وجه إفريقيا، وتحويلها من الوثنية إلى الإسلام فإن دور التجار المسلمين لم يكن أقل أهمية من حيث المشاركة في الإسلام.فقد كانت تجارتهم ذات أعمال مزدوجة، رابحة في الدارين الدنيا والآخرة، ولو لصالح الإسلام ونفع المسلمين. حيث انهم ربطوا مختلف المناطق النائية بطرق تجارية لسد احتياجات القبائل والشعوب بالقارة وأنعشوا المبادلات التجارية، ولهذا الأمر أهميته الاقتصادية الكبرى هذا من جهة ومن جهة أخرى مكنوا الوثنيين من الدخول في الإسلام بمعاملتهم النقية وأمانتهم الطاهرة .فقد كان لحركة القوافل بين حواضر الصحراء وبلاد السودان أثر كبيرفي التواصل

[1]–قدح نعيم، **حضارة الإسلام و حضارة أوروبا في إفريقيا الغربية**، طبعة الجزائر، بدون تاريخ، ص 94– 95.

الروحي العميق،الذي نجد له نموذجا متميزا في العلاقة بين إقليم توات وحاضرة السودان الغربي (تمبكتو).

يقول امادوديا في هذا الصدد: " لم يدخل الإسلام غرب إفريقيا عن طريق الغزو الإمبريالي ولا عن طريق شواطئ النيل، وإنما عن طريق الصحراء التي أعتبرت فيما بعد بحراً لا سبيل لعبوره " [1].

يذكر أن التجار والدعاة التواتيين أولئك الجنود المجهولين الذين لم ينضووا تحت لواء دولة ذات منفعة، ولم ينتظموا في جيش أو خلف قائد بعينه، هم الذين واصلوا حركة الفتح في إفريقيا واستطاعوا ان ينشروا الإسلام في مناطق واسعة من القارة وليس لهم من العدة والسلاح إلا الحكمة والموعظة والأسوة الحسنة ولقد كابدوا في ذلك من المشاق القدر الكبير[2]. وهذا ما يؤكد تأثير جنوب شمال المغرب الإسلامي خاصة إقليم توات في بلدان إفريقيا المجاورة له بشتى الطرق الحضارية.

لم تكن الصحراء الكبرى فاصلة بين إفريقيا العربية وإفريقيا السوداء الغربية أو حاجزاً يقف دون نشاط العرب المسلمين في أداء رسالتهم الحضارية الإنسانية، لقد حمل المسلمون من العرب والبربر الدين الإسلامي إلى إفريقيا في رحلاتهم التجارية وقام بالدعوة أيضا الدعاة المسلمون، وكان لإنتشار الإسلام في وادي النيجر أكبر الأثر في نشوء مدينتين إفريقيتين إسلاميتين تعتبران مركز إشعاع الثقافة العربية الإسلامية، الأولى مدينة تمبكتو التي تأسست في القرن الثاني عشر الميلادي. على طريق القوافل القادمة من شمال إفريقيا، غير بعيد عن نهر النيجر[3].والتي يقول عنها السعدي: « ما دنسها عبادة الأوثان ولا سجد على أديمها قط لغير الرحمان» والثانية هي مدينة (جيني) أو جنة المدينة التجارية التي تقع إلى الجنوب الغربي من الأولى فقد هدم سكانها في مطلع القرن السابع الهجري

[1]–الشيخ أنتاديوب، إفريقيا قبل الإستعمار، طبعة بيروت، ص 162.

[2]–خليل النحوي، المرجع السابق، ص 262.

[3]–الشيخ أنتاديوب، إفريقيا قبل الإستعمار، طبعة بيروت، لبنان، بدون تاريخ، ص 167.

(الثالث عشر الميلادي) الآثار الوثنية وأقاموا على أنقاضها المساجد ذات الطراز المغربي السوداني[1].ولقد قدر لهاتين المدينتين أن تؤثرا تأثيرا بليغا في تقدم الإسلام في السودان الغربي، فلم ينتشر الإسلام من توات إلى داخل القارة الإفريقية عن طريق الغزو والفتح، بل كان ينتشر مع ركاب القوافل التجارية التي كانت في حركة دائبة بين شمال إفريقيا والمناطق المطلة على الصحراء الكبرى من جنوبها والتي كانت تمتد من المحيط الأطلسي غربا إلى سودان ووادي النيل شرقا [2].

ومن ابرز المآثر والأعمال الجديرة بالذكر فيما يتعلق بالتجار التواتيين، وأنهم أسهموا في بناء المساجد والزوايا وفتح المدارس والمصاهرة مع أهالي البلاد التي يتردد عليها المسلمون أو يستوطنونها أو بشراء العبيد الذين يعلمونهم مبادئ الإسلام ثم يعتنقونهم ويعيدونهم إلى أوطانهم كي يدخلوا إخوانهم في الإسلام، فكانوا الساعد الأيمن للعلماء والفقهاء، وهذا الفضل يذكره التاريخ للتجار الذين انتشروا بمدينة تمبكتو، وغيرها من المدن والمناطق الأخرى[3]، ورغم وعورة مسالك الصحراء وبعد المسافات إلا أن هذا لم يكن عائقا في وجه تجار توات الذين كان لهم مسلك نحو شمال المغرب الإسلامي ومسلك نحو الجنوب ومناطقه (إفريقيا جنوب الصحراء) فقد كانت القوافل التجارية تربط بين مراكز الحضارة في الشمال وبين سكان جنوب الصحراء الكبرى، وقد اتسع دور هذه القوافل التجارية بعد أن عم انتشار الإسلام في شمال إفريقيا، حمل المسلمون من العرب والبربر الدين الإسلامي إلى غرب إفريقيا، حيث كان التاجر المسلم يمثل في أفعاله قيما دينية كان لها تأثير على غيره من الناس، وفي هذا الصدد يقول الدكتور حسن إبراهيم حسن: «... إذا دخل قرية وثنية سرعان ما يلفت الأنظار إليه بكثرة وضوءه الذي

[1]–قداح نعيم، المرجع السابق، ص 86.

[2]–حسن إبراهيم حسن، انتشار الإسلام و العربية في ما يلي الصحراء الكبرى، ط 3، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1983م، ص 17.

[3]–حسن إبراهيم حسن، المرجع نفسه، ص 16.

هو مظهر الصلاة والعبادة التي يؤديها بنظام وخشوع كأنه يخاطب كائنا خفيا، وأيضاً مظهراً من مظاهر النظافة المحببة إلى النفوس البشرية، وما يتجلى عليهم احترامه وتقديره والاستماع لما يقوله»[1]. فهكذا – كان السمو العقلي والخلقي الذي يتميز به التاجر المسلم دور في استمالة قلوب الوثنيين إليه، و إثارة فضولهم لمعرفة هذا الدين الجديد (الإسلام).

ثالثا –تأثير الهجرات الجماعية :

عرفت مناطق الشمال الإفريقي بصفة عامة هجرات كثيرة لبعض القبائل إلى الجنوب لأسباب وأغراض مختلفة، كما عرف إقليم توات تحركات وتنقلات كثيرة لبعض القبائل والجماعات والأفراد ونتج عن ذلك خير كثير لصالح القارة السمراء التي دخلها الإسلام من هذا الباب، أي عن طريق المجموعات والقبائل النازحة. ويذكر المؤرخون أن سبعة قبيلة وصلت توات فيما بين سنوات 501هـ– 698هـ،كانت أولها قبيلة أولاد عبد الجليل وآخرها أحرازم [2] ومن بين أهم القبائل العربية التي اتجهت من توات نحو غرب إفريقيا لنشر الإسلام ، قبيلة كنتة التي تنتمي إلى عقبة بن نافع الفهري رضي الله عنه، ويقول عنها الدكتور مصطفى أبو ضيف (كانت هناك قبيلة عربية واحدة لها أثر عظيم في إسلام الزنوج في منطقة الصحراء، ومنطقة النيجر الوسطى وتلك هي قبيلة كنتة التي هاجرت في القرن التاسع هجري من مواطنها بتوات إلى أطراف تمبكتو)[3].

تتميز منطقة توات باستقرارها وأمنها، لذلك كانت مأوى لنزوح القبائل المختلفة والاستيطان بها بداء من العبيدين والبرامكة وانتهاء بالهلاليين والمرابطين وغيرهم من القبائل والشعوب، وذلك إما لأسباب نفعية أو أمنية أو دينية ومن ثم انتشروا نحو بقية أطراف إفريقيا.

---

[1]–حسن إبراهيم حسن، المرجع السابق، ص 16–17.

[2]–محمد بن مبارك، تاريخ توات، زاوية تمنطيط، ص 1–2 .

[3]–مصطفى أبو ضيف، ملتقى الدراسات الإسلامية و العربية بإفريقيا، محلة الرسالة، أدرار، العدد 10، 1988م.

وأهم ما تمخضت عنه الهجرات الجماعية وشبه الجماعية إنشاء الممالك الإسلامية في غرب إفريقيا وانتشار الإسلام وسط الوثنيين وهي الناحية الإيجابية في ظاهرة النزوح والهجرة،فظاهرة الحل والترحال التي تميز أهل المنطقة من تجار وقبائل كحال قبيلة كنتة [1] ذات الفروع المختلفة في الجزائر والنيجر والسينيغال وغيرها، التي شهدت الحل والترحال بين توات وبلاد التكرور.

لقد كانت علاقة الجوار ورابطة القربى بين التواتيين وجيرانهم الأفارقة، عاملا مساعدا في نشر الإسلام في مناطق بلاد السودان الغربي،حيث نسج الجوار الجغرافي خيوط الألفة بينهما،وتطورت هذه الألفة إلى علاقة عائلية في بعض الحالات حيث امتزج الدم العربي البربري بالدم الإفريقي، منذ عهود مبكرة وحرصت الشعوب والقبائل الإفريقية التي اعتنقت الإسلام على تأكيد نسبتها العربية هذه وارتفعت بها أحيانا إلى أصول تواتية،وإن دعت إلى بعض الفاتحين الأوائل مثل عقبة ابن نافع، فالكثير من القبائل التكرورية والفلانية المنتشرة حول ضفاف نهر السينيغال ونيجيريا تعتبر نفسها ذات أصول عربية، وهي مجموعة بشرية ذات تاريخ عريق وإسهام جليل في نشر الإسلام والثقافة العربية، وألوانها فاتحة تميل إلى سمرة، يدرك من يراهم أن دمهم مزيج من دماء الأفارقة السود والعرب،قد وصل امتزاج الدماء إلى بيوت الإمارة على ضفتي نهر السينيغال فقد تزوج محمد الحبيب بن أعمر بن المختار الكنتي وريثة عرش براك (ملك) وألو الأميرة جمبت وولدت له ابنه الأمير علي ،فحلت الدبلوماسية محل العنف في العلاقة بين العرب وجيرانهم السود وكانت حركة الاتصال جيئة وذهابا،نشطة عبر النهر،وربما أفضت إلى الاستيطان،فقد هاجرت مجموعات تواتية فعبرت النهر واستوطنت المنطقة منها قبيلة أولاد الحاج والترارزة والبراكنة وأولاد اعيش وأولاد أبي السباع وكنتة واولاد أعلي والشرفاء والقلالمة وغيرهم.وقد انصهر كثير من هؤلاء في المجتمع

[1]-Zaouche, op.cit, p 9.

الإفريقي حتى " فقدوا دماءهم العربية الخالصة، ولكنهم أعطوا مقابل ذلك الإسلام ونشروا العربية "[1].

ظل حضور التواتيين وتأثيرهم في المناطق الإفريقية المجاورة يقوى ويتعاظم على مر القرون فكان الإسلام يزداد بهم انتشارا جيلا بعد جيل، منطقة بعد منطقة، وكانوا بانتشار الإسلام يزدادون قوة ونفوذاً وتأثيرا وكثافة حضور. كما أنه قد تربى علماء ومجاهدون وأعيان أفارقة كثيرون في المدرسة التواتية منهم من جاء إلى البلاد، فاستقبله العلماء في زواياهم وعلموهم ما علمهم الله، ومن العلماء التواتيين من جال في أقطار إفريقيا أو انتداب من ينوبه للدعوة للإسلام ونشر العلم، فقد كان لأبي القاسم التواتي والمغيلي والبكاي وغيرهم منزلة عظيمة عند رؤساء السودان .

لقد لعبت هذه القبائل دورا كبيرا في ميدان التعريب ،فقديما كانت تسود في الصحراء لغات بربرية وزنجية ولم يكن للعربية حضوراً ذو شأن، وبعد دخول الإسلام بقرون عرفت اللغات الصنهاجية البربرية تراجعا حتى كادت تنقرض فاحتضن أهلها العربية بشغف وإيمان و إن لم يهجروا لهجاتهم.

لقد كان دخول القبائل العربية المهاجرة دورا حاسما في نشر العربية، فقد نشرت الفصحى وغرست حبها في النفوس وبثت معارفها بين الناس، ومضت تنشر اللغة العربية وثقافتها خارج الحدود.وقد أحب التواتيون العربية حبا جما فانكبوا على دراستها بشغف حتى أخذوا بناصيتها وروضوا أوابدها وذللوا قطوفها تذليلا، فصارت لهم الفصاحة سمة كالجبلة،وأدركوا أن اللغة هي العامل الأول في الانتماء القومي واعتبروا كل من يتكلم العربية فهو عربي، ولقد بلغ من حبهم للعربية والدين الإسلامي أن ارتدوا جلباب العروبة وتشبثوا بأنساب عربية نقية منهم من زعم – ولسنا نكذب أحد– الانتماء لقريش بواسطة عقد القبائل العربية،منهم

[1]–سيدي محمد بن بناهي، نماذج من تاريخ أسرة آل حبت، طبعة تونس، 1987م، ص 42.

العلويين ومنهم الهاشميون ومنهم البكريون والعمريون،ومنهم الأمويون والفهريون ومنهم من أقر بصنهاجيته وزناتيتهوتمسك بعروبة صنهاجة وزناتة وحمييرتها، وتشبثت في ذلك بشهادات عدد من المؤرخين والنسابة.

وارتبطت القبائل التواتية بعلاقات عديدة مع غرب إفريقيا وبصفة خاصة مع أمراءها باعتبارهم حكاما يخضعون لهم من الناحية الإقليمية، أما الأمراء والملوك فقد راجعوا من الناحية الدينية والفقهية وكيفية الحكم من الناحية الشرعية وسائر الأمور العامة فكثيراً ما قدم التواتيون نصائح للأمراء والملوك عندما يتطلب الأمر ذلك أو عندما تظهر مؤشرات تلزمهم معالجة الأحداث قبل استفحالها ،كما فعل المغيلي مع الأسكيا ومشايخ قبيلة كنتة مع أمراء ماسينا ،فالشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيدي المختار الكبير له مواقف عرضتها رسالته التي تناول فيها ما يجب أن يكون عليه حكام ماسينا من صفات حميدة ويطلب من أحمد لب الفلاني التشبه بـ عمر بن عبد العزيز [1].

وتعتبر الرسائل الكنتية الموجهة إلى أمراء ماسينا وثيقة هامة لمعرفة الأوضاع الاجتماعية،وتكمن أهميتها أنها تلقي بعض الأضواء على الوضع الاجتماعي أثناء حكم الفلانيين، ويلاحظ على الكنتيين الصراحة في طرح القضايا التي تشغل اهتمام شعوب المنطقة نظرا لاطلاعهم على أوضاع السودان الغربي من الناحية الداخلية،كما تعطينا صورة أخرى عن مكانة شيوخ كنتة لدى الأمراء الفلانيين باعتبارهم قادة روحيين يرجع إليهم في المجال الديني و القضايا الهامة[2].

[1]– الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيدي مختار الكبير، **رسالة إلى أحمد لب**، مركز أحمد بابا تمبكتو، رقم 289، ص 6.

[2]– حوتية محمد صالح ،قبيلة كنتة بين إقليمي توات والأزواد رسالة ماجستر في التاريخ الحديث و المعاصر، جامعة الجزائر، 1992– 1993م، ص 108.

رابعا –تأثير الطرق الصوفية والمتصوفين :

لرجال التصوف والصوفية بتوات وغيرها،فضل لا يستهان به وخاصة لأسلوبهم التربوي الذي اعتمده شيوخهم ومربيهم في تعليم مبادئ التصوف،التي جذبت إليهم العديد من طلبة المعرفة،وسواء الطريقة القادرية أو التيجانية أو البكائية أو الوزانية أو السنوسية أو غيرها من الطرق التي انتشرت في المنطقة، فقد صاحب انتشار الإسلام في غرب إفريقيا انتشار الطرق الصوفية المذكورة آنفا،وذلك أن أتباع الطرق يدعون إلى الإسلام عن طريق التصوف ويعرفون بشيوخهم وفقهائهم الذين كانت لهم مكانة عظيمة في قلوب أتباعهم، وربما هذا الأمر من أكبر العوامل التي نشرت الإسلام في غرب إفريقيا، فالأفارقة الوثنيون كانت تتحكم في تفكيرهم الخرافات والأساطير هذا ما سهل نقلهم إلى الإسلام عن طريق التصوف.وقد يتأكد هذا الأمر لدينا إذا عرفنا اليوم أن شعبا بأكمله هو شعب السنيغال يخضع كله أو أغلبه للطريقة التيجانية ومثل هذا القول يذكر عن سكان النيجر وموريتانيا بالنسبة للقادرية[1].

إن لمكانة العالم أو الشيخ عند السالكين في طرق الصوفية وارتباطهم بالأولياء الصالحين أسباب لها أثرها الواضح في نشر الإسلام والدعوة إليه،وهي حقيقة يجب أن تذكر وينوه بها، فمن أهم إفرازات الارتباط بالشيخ المربي والطريقة الصوفية تكون ملكات الطاعة والرقة والأدب و الإحسان في نفسية المريد فيكون بهذا مرشدا وقدوة لغيره.

لقد وجد الباحثون أمثال أرنولد و مارتي ودو وغيرهم أن للإسلام صلة وثيقة بنفسية الإفريقي،ذلك أن تقاربا كبيرا قد ربط بين العقلية الإفريقية والتقاليد الإسلامية، إذ شعر المسلم الإفريقي منذ الوهلة الأولى بالأخوة الحقيقية بينه وبين الداعية وقد قال في ذلك أرنولد توماس على لسان أحد الشهود إننا نجد الدعاة

[1]–عن دور الطرق الصوفية في نشر الإسلام في الصحراء، أنظر:
إسماعيل العربي، الصحراء الكبرى وشواطئها، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983م، ص 221 فما بعدها.

المسلمين ينفذون إلى قلوب الأفارقة الوثنيين ويحولونهم إلى الإسلام،وكان من أثر تصرفات الداعية السلمية أن أصبح الزنوج ينظرون إلى الإسلام على انه دين السود والمسيحية دين البيض، فالإسلام يدعو إلى الخلاص ولكن المستعمرين يجعلون الإفريقي في مكان منحط ، بينما الإسلام يدعوه إلى الثقة بالنفس قائلا :- إن بلوغك أسمى الدرجات متوقف عليك – ولهذا يشعر الإفريقي بأن الإسلام لم يقطعه عن ماضيه أو عن مجتمعه[1].

ومما هو جدير بالملاحظة أن الفرق الصوفية التي أسسها التواتيون في بلاد السودان الغربي كانت تقوم في الغالب على الإرشاد الذي هدفه نشر تعاليم الدين الإسلامي وغرس ثقافة حب الجار والتسامح مع الوثنيين والمسحيين هناك.

ولأجل ذلك عمدت هذه الفرق استخدام كل وسائل الترغيب،رغبة في نشر الدين ابتغاء مرضاة الله وحسن الثواب في الآخرة وهداية الناس،بدءاً بتأسيس المساجد وفتح المدارس والمصاهرة مع أهالي البلد الذي يتردد عليها التواتيون أو يستوطنوها، أو بشراء العبيد لتعليمهم مبادئ الدين الحنيف،ثم عتقهم لوجه الله وإعادتهم لوطنهم ليقوموا بعد ذلك بإدخال إخوانهم في الدين، أضف إلى ذلك مبدأ الحرية والإخاء والعدل والمساواة،إذ أن الزنجي لا يحبذ أن يعامله إخوانه في الإسلام بالنظر إلى لونه على أنه من طبقة دنيا بنسبة إليهم كما هو الحال في كثير من الأحيان في العالم المسيحي[2].

وقد كان في غرب إفريقيا هناك طريقتان صوفيتان تعملان بنوع خاص على نشر الإسلام، هما القادرية والتيجانية [3].كانت الطريقة القادرية أوسع الفرق الدينية انتشارا في إفريقيا الغربية « وقد دخلت القادرية – كما يقول المستشرق أرنولد

[1]–انظر هامش كتاب المستشرق توماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ترجمة، حسن إبراهيم حسن، القاهرة، 1957م، ص 394–395.

[2]–حسن إبراهيم حسن، المرجع السابق، ص 16–17.

[3]–ليفي بروفنسال، الشرق الإسلامي و الحضارة الأندلسية، منشورات معهد مولاي الحسن، تيطوان، ص 35.

توماس إلى إفريقيا الغربية في القرن الخامس عشر ميلادي على أيدي مهاجرين من توات ...فاتخذوا من ولاتة أول مركز لطريقتهم،ولكن أحفادهم طردوا من هذه المدينة فيما بعده،فلجئوا إلى تمبكتو وأقاموا في جهة نائية شرقي ولاتة »[1].

ويعود تأسيس القادرية إلى العراق،وأما انتشارها في شمال إفريقيا فقد كان خلال القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) ثم دخلت إلى إفريقيا الغربية عن طريق بلاد شنقيط – موريطانيا حاليا – وكانت ولاتة أول مركز لها ولطريقتها والتي دخلتها كما قلنا سابقا عن طريق توات،ثم امتد نفوذها إلى تمبكتو في القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي)،ولم يمضي زمن طويل حتى عجت البلاد الإفريقية بالدعاة القادريين التواتيين منهم والفقهاء والعلماء ،وقد وصلت طلائعهم إلى مدينة " تمبو " في الفوتا جالون بـ غينيا ، وقد عاش كثير من الدعاة بين شعوب الوثنية التي رحبت بهم باعتبارهم فقهاء متعلمين، فقد كانوا يدعون إلى الدين والعلم معا، ويرسلون من يود المزيد من العلم إلى توات ومدن الشمال،وكان الدعاة القادريين يؤسسون المدارس ويشرفون وينفقون عليها وكان نشاطهم في الدعوة يقوم على الإرشاد السلمي وعلى التمسك بالفضيلة التي تجعل من الداعي قدوة صالحة لغيره وقد تميزت هذه الفرقة بانضمام الطبقة المترفة إلى صفوفها [2].

---

[1]–أرنولد توماس، المرجع السابق، ص 365.

[2]–القادرية مؤسسها محي الدين أبو محمد عبد القدر الجيلاني (1079–1166م)، من فرقها البكائية و المرغنية و السنوسية و غيرها أنظر:

أحمد شلبي، موسوعة التاريخ، ط 4، مكتبة النهضة المصرية، 1983م، ج6، ص 211. أما التيجانية فمؤسسها أبو العباس احمد بن محمد المختار التيجاني المولود سنة 1150هـ /1737م، بقرية عين ماضي بالأغواط الجزائرية، أنظر:

سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، 1981م، ج1، ص 517–518.

واتسعت خريطة انتشار الطريقة القادرية في بلاد السودان على يد الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي وعنه أخذ الطريقة الشيخ سيدي أعمر بن الشيخ سيدي أحمد البكاي بن سيدي أحمد الكنتي (959هـ /1552م).

ومن أهم فروعها في توات وبلاد السودان البكائية التي أسسها الشيخ سيدي أعمر بن الشيخ سيدي أحمد البكاي في القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي). وبلغت هذه الطريقة أوج مجدها مع ظهور الشيخ سيدي المختار الكنتي المتوفى سنة 1226هـ/1821م،و إليها ينتسب الشيخ سيدي الذي تلقى العلم والتربية الصوفية في حضرة الشيخ سيدي مختار الكنتي، فنتشر القادرية في مناطق تمتد من جنوب بلاد شنقيط إلى السينغال والسودان و غنيا [1].

تلقت ولاتة المدد الثقافي من توات وحل بها رجال كانوا دعاة إلى الله ومعلمين مرشدين ومن هؤلاء العلماء يحيى كامل المحجوب " جد قبيلة المحاجيب التواتية " الذي جاء ولاتة في عهد اختلف في تحديده هل في القرن الثاني عشر أو السادس أو التاسع للهجرة،وقد ذكر أن هذا العالم كان معاصراً لسيدي عبد القادر الجيلاني وانه كان معه في العراق مما يرجح أنه من أهل القرن السادس، وبوصول يحيى الكامل انتعشت حركة الثقافة العربية الإسلامية في مدينة ولاتة، وفي القرن التاسع جاء الولي الصالح أحمد البكاي «ت 920هـ/1541م» إلى ولاتة فاتخذها داراً له[2] ثم بعد ذلك أوصل الطريقة القادرية إلى السينغال[3]، ولقد تناول التواتيون الطريقة القادرية في عدد من مخطوطاتهم،ويعتبرون أنفسهم مرتبطين بعبد القادر الجيلاني من ناحية الذكر لهذا ظهر منهم مشائخ اتصفوا بالكمال من الناحية الدينية والروحية،فحاذوا على المراتب بين قبائلهم،فأوكلت لهم مهمة الإشراف على الطريقة لينسقوا بين المريدين،ويحيوا مناسبات ويدخلوا الطريقة

[1]–قداح نعيم، المرجع السابق، ص 94–95.

[2]–سيذاتي بن الشيخ، تحقيق، باب الأخلاق من كتاب الطرائف و التلائد، المصدر السابق، ص 5.

[3]–خليل النحوي، المرجع السابق، ص 69.

القادرية العديد من الأقطار ،فقد استطاعوا عن طريق تكوين " مقدمين " مهمتهم نشر الطريقة حسب ما جرت العادة التي تكلف المقدم أو خليفته بالعمل بعدما يتسلم السجادة أو السبحة أو عكاز الشيخ الذي يأخذ عنه الورد [1].

ولقد كثر الدعاة القادريون التواتيون من الفقهاء والمعلمين بين الشعوب السودانية التي كانوا يدعونها إلى العلم والدين،فلقوا ترحبا منهم[2].

كما نزح من دعاتهم للقيام بمهمة الدعوى بين الشعوب الوثنية،وقد نجحت هذه الطريقة بانضمام ملوك وأمراء السودان الغربي إليهم كما فعل أمراء ماسنا مع الكنتين الذين اتخذوهم مستشارين لهم فقدموا لهم خبرتهم وثقافتهم،لهذا أحس الزنوج أنفسهم بأنهم جزء من الأمة الإسلامية،وأكسبوا الشعور بالثقة في النفس وشاركوا في طريقة الدفاع عن الطريقة القادرية[3]، وبعد وفاة الشيخ سيدي احمد البكاي انتشرت الطريقة القادرية في غرب إفريقيا وتميزت بأسماء خاصة بها فأصبحت هذه الفرق مستقلة عن بعضها البعض ومن أهم فروعها الطريقة البكائية[4]. التي تزعمها بعد وفاة أحمد البكاي في بلاد السودان بابا احمد ولد الشيخ سيدي مختار الذي اعتبر رئيس الطريقة البكائية المختارة بمنطقة تمبكتو والمناطق المجاورة لها فقد أخذ الشيخ أحمد بمب الطريقة عن الشيخ سيدي البابة أحد طلبة الكنتي في تندوحة، وتلقى العلم هناك، ولا ينافي ذلك استقلال الشيخ سيدي السينغالي من بعد بالطريقة المريدية، وقد أدى الدور الأكبر في التعليم والتربية والدعوى في إفريقيا رجال من الأسر الكنتية ،وقد التمس الأفارقة عند التواتيين أيضا العلم الباطني والطرق الصوفية [5].

---

[1]–سبنة عامر، الأدب السينغالي العربي، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، 1978م، ج1، ص 33.

[2]–الشيخ سيدي محمد بن الشيخ المختار، المصدر السابق، ص 184.

[3]–قداح نعيم، المرجع السابق، ص 84.

[4]–قداح نعيم، المرجع نفسه، ص 85.

[5]–مؤسسها الشيخ أحمد البكاي، وهي فرع من القادرية، وتعد زاوية كنتة القائمة بقصر أولاد السي حمو الحاج، المركز الرئيسي لها، و هي من أغنى الزوايا الكنتية، أنظر:

لقد كانت تقوم المراكز الرئيسية التي أسسها التواتيون بتنظيم دعاة الفرق القادرية في كنكاء، وتمبو – بجبال فوتا جالون – ومسرد وبلاد الماندجو ومواطنهم على نهر الجمبي في غينيا، وكانت هذه المدن تؤلف مراكز النفوذ الإسلامي وسط شعب وثني رحب بالقادرية باعتبارهم كتابا فقهاء ومعلمين ولم يمضي زمن طويل حتى وجدنا فقهاء مثقفين وجماعات من المريدين قد انتشروا في أرجاء السودان الغربي، من السينغال إلى مصب نهر النيجر، وكان بعض هؤلاء الذين دخلوا في الإسلام يوفدون لإتمام دراستهم بمدراس الإقليم التواتي أو مدراس الشمال ، حتى إذا ما أتموا دراستهم الدينية، عادوا إلى أوطانهم مزودين بالعلم والدين للعمل على نشر العقيدة الإسلامية بين مواطنيهم.وكان المعلمون الذين تربوا في سلك نظام الفرق الصوفية التي أسسها التواتيون هناك والتي كانت تقوم على حب الجار والتسامح يؤسسون المدارس في السودان الغربي،ويقومون بالإنفاق عليها ، وكان نشاط الجماعة ذو طابع سلمي للغاية يعتمد كل الإعتماد على الإرشاد ،كما كان يعتمد على تأثير المعلم في تلاميذه وانتشار التعليم في الوقت نفسه[1].

إنه لواضح مما سبق أن الجماعة القادرية لعبت دورا هاما في نشر الدين الإسلامي في السودان والتعريف بالحضارة العربية الإسلامية.كما أنه قد برهن دعاة القادرية على أنهم أوفياء لأهم مبادئ التي كانوا يعملون بها في حياتهم،والتي تقوم في مجملها على حب الجار والتسامح وغيرها من الصفات الكريمة[2]،التي يتميز بها الإنسان المسلم (المتصوف) .

خامسا –<u>تأثير الزوايا</u> :

كان لنظام الزوايا التي أنشأها رجال الطرق الصوفية والفقهاء والتجار، هنا وهناك وحيث ما حلوا،دور رئيسي في تثبيت دعائم الإسلام بربوع القارة

فرج محمود فرج، المرجع السابق، ص 110.

1–أحمد بن طلبة، <u>الثقافة العربية الإسلامية في غرب إفريقيا</u>، جامعة تونس، ندوة عقدت في 1985/10/26م.

2–أرنولد توماس، المرجع السابق، ص 365–366.

السمراء.وهذا الأمر ينطبق تماما على علماء توات ورجالها الذين اشتهروا بكثرة رحلاتهم وكثرة بنائهم للزوايا المتعددة الخدمات والمهام، فهي كانت تقوم بدور العبادة والتربية والتعليم في آن واحد كما كانت عبارة عن مراكز لإقامة الطلبة ونزول المسافرين وإيواء الفقراء وأبناء السبيل.

تستمد الزوايا في القصور والمدن التواتية مواردها المالية من ريع الأحباس المالية والعقارات ومن الهيبات والمنح التي يقدمها أتباع كل زاوية وهي تتشابه مع زوايا غرب إفريقيا مما يؤكد العلاقات الكبيرة بينهما.

إن خدمات الزوايا وأنظمتها ونشاط رجالها ساعدت كثيراً في انتشار الإسلام في غرب إفريقيا،وفتحت الطريق أمامه نحو بقية الوثنيين، وهذا ما دفع بالدعاة النصرانيين إلى الاستفادة من ذلك حيث طبقوا اليوم لغويا نظام الخدمات في جلب الأفارقة وإدخالهم في النصرانية[1].

والزوايا مأخوذة من فعل انزوى ينزوي، بمعنى اتخذ ركنا من أركان المسجد للأعتكاف والتعبد، وقد أدرك خلفاء المسلمين الأوائل حاجة المعتكفين إلى هذا الانزواء، فانشئوا لهم مساكن ملحقة بالمسجد، كما نشاهد ذلك ماثلاً حتى الآن ببعض مساجد توات، ثم تطورت الزوايا فيما بعد إلى ابنية صغيرة منفصلة في جهات مختلفة من المدينة في شكل دور أو مساجد صغرى يقيم فيها المسلمين الصلوات الخمس،و يتعبدون فيها و يعقدون بها حلقات دراسية في علوم الدين وما يتصل به من العلوم النقلية و العقلية وتطلق الزوايا أيضاً على المعهد والرباط الذي أنشأته إحدى الفرق الصوفية كالقادرية[2].

تنتشر الزوايا في كثير من أرجاء المدن والقرى والقصور التواتية وتطلق كلمة زاوية في توات على مسجد خاص بطائفة من الصوفية أو ضريح لأحد الأولياء، تتصل بها غالبا مقبرة يدفن فيها بعض من لهم علاقة بالطريقة أو قرابة بالولي،

[1]–حسن إبراهيم حسن، المرجع السابق، ص 16–18.

[2]–مجلة الرسالة، عدد 10 الشهر جانفي، السنة 1988، الجزائر، ص 49–50.

وكثيرا ما تلحق بالزاوية حجرات ينزل فيها الضيوف والمنقطعون للعلم والعبادة، كانت الزاوية التواتية مدرسة دينية ودار لضيافة الأغراب، وفي القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) انتشرت الزوايا في بلاد المغرب وأنشئت بها كتاتيب القرآن وتعليم الدين ومبادئ العلوم، الأمر الذي حدى بملوك بني مرين أن يطوروا هذه الكتاتيب إلى مدارس وكليات، قصد المشاركة بها في الحركة العلمية بجانب جامع القرويين بفاس وغيرها من مدارس الزوايا داخل المدن وخارجها وقد خص ابن مرزوق التلمساني المتوفى سنة " 781هـ/1379م "الفصل الثاني والأربعين من رسالته عن أبي الحسن المريني المسماة " المسند الصحيح الحسن " للكلام على الزوايا التي شيدها هذا الملك المغربي[1].

وقد تطورت الزوايا بتوات في القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) حيث أصبحت تدعوا إلى الجهاد ضد اليهود و غيرهم وأصبح عددها يقرب من عدد المساجد أو يفوقها[2].

وهكذا نرى أن الزاوية التواتية نشأت من أجل أهداف دينية خالصة، أهمها ترسيخ الإسلام الصحيح وأحكامه في نفوس المسلمين الجدد الذين ظل إسلامهم ناقصاً نتيجة جهلهم وبعدهم عن مراكز التوجيه الإسلامي، هذا بالإضافة إلى متابعة نشر الرسالة بين الشعوب التي لم تبلغها بعد، لقد ظلت العلوم الدينية بمختلف أنواعها العمود الفقري للزاوية و المحور الذي تدور عليه،وقد حقق الأدب تطورا واضحا في ظل هذه الزاوية الدينية،وكانت من أدواتها الهامة لحمل الرسالة وتبليغ الدعوة الإسلامية[3].

و إذا نجحت الزاوية في بلوغ الهدف الذي اتبعته داخل منطقة توات فقد طمحت إلى أن تنقل عطائها و إشعاعها الروحي إلى الخارج فكان لها أثراً كبيراً

[1]–خليل النحوي، المرجع السابق، ص 87.

[2]–دائرة المعارف الإسلامية، المجلد العاشر، ص 332.

[3]–فرج محمود فرج، المرجع السابق، ص 165.

في نشر الإسلام في إفريقيا الغربية بوصول رجالها إلى مختلف شعوب القارة الإفريقية مبشرين بمبادئ الدين الإسلامي ومعالمه الحضارية السامية، وقد واصلت الزاوية التواتية إرسال الأفواج المتتالية من خريجيها الممتازين إلى مختلف الأقطار الإفريقية لنشر مبادئ الإسلام وتأسيس زوايا فرعية ،وفي نفس الوقت ظلت تستقبل الوافدين من هذه الأقطار للارتواء من منابع الثقافة الإسلامية[1].

وكان للزاوية التواتية في إفريقيا الغربية الفضل الأكبر في تحقيق التعريب الشامل فقد نشرت الفصحى وغرست حبها في النفوس وبثت معارفها بين الناس وقد قص علينا التاريخ نتفا من الدور الذي لعبته القبائل التواتية في هذا المجال نذكر منها على سبيل المثال قبيلة كنتة التي كانت لها مكانة مرموقة في بلاد السودان الغربي، وذلك بما قامت به من مهام تعليمية أسهمت بها في نشر اللغة والحرف العربي، وفي تأليف العديد من المصنفات اللغوية والفقهية والأدبية وفيما أنجبته من علماء أفذاذ كان لهم الفضل في المحافظة على الثقافة الإسلامية، دون أن ننسى مشاركة شيوخ كنتة في الدعوة للتصوف و نشر الطريقة القادرية التي عمقت الإحساس الديني وأثرت تأثيراً إيجابيا في المجال الثقافي لسكان بلاد السودان الغربي[2].

وبعد أن أستقر الشيخ عبد الكريم المغيلي بتوات وبنى الزاوية القادرية،ووجد الجو مهيئاً أمامه للمشاركة في نشر الدين الإسلامي بمناطق الهاوصة و اصبحت توات بالنسبة له قاعدة رئيسية ينطلق منها إلى هذه المناطق لنشر الإسلام بين القبائل الهاوصة ويعلم مسلميهم أصول الدين ويفتي لدى الملوك والأمراء في المسائل والقضايا المستعصية عليهم ، وبعد وفاته استمر التواتيون يغذون هذه

[1]–عباس الجراري، ثقافة الصحراء، طبعة تونس، 1987م، ص 165.

[2]–عباس الجراري، نفسه، ص 43–44.

المنطقة بالأفكار والثقافة الإسلامية، فقد استقر كثير من تجارهم بمدينة تمبكتوا فاسهموا في بناء الزوايا والمساجد داخل تمبكتو[1].

وكان العلماء والدعاة المسلمين التواتيين يجوبون البلاد الإفريقية المجاورة، ينشرون فيها مبادئ الإسلام وتعاليمه بين الأفارقة بتلقين القيم والخلاق الفاضلة والشعائر التي يؤدونها و كذا بأحاديثهم للناس وتعليمهم ووعظهم.

وكان الأمراء الأفارقة الذين يعتنقون الدين الاسلامي، يتخذون شيوخاً من أهل الزاوية التواتية يعلمونهم أحكام الدين ويقرئونهم القران ويؤمون بهم الصلاة ويبذلونلهم النصح، كما فعل الشيخ المغيلي والشيخ أبو القاسم التواتي والشيخ أحمد البكاي وغيرهم من مقدمي الزاوية التواتية[2].

الخاتمة

من خلال ما تقدم من عرض لطبيعة التأثيرات الحضارية للإقليمتوات في بلاد السودان الغربي تتضح لي النتائج التالية:

أولا:

إن إقليم توات كان همزة وصل بين شمال الصحراء وجنوبها، ومركز ثقل اقتصادي واجتماعي وثقافي في البيئة الصحراوية.

ثانياً :

إن إقليم توات شكل دوراً حضارياً بحيث ربط المغرب الإسلامي بإقليم السودان الغربي، فلم تضعف أو تتلاشى هذه الرابطة إلا في العصر الحديث بعد موجة الاستعمار للقارة.

ثالثا:

استطاع أهل توات، في ظل حياة هادئة عكف فيها مشايخهم على تحصيل العلم أينما كان بفضل تنقلاتهم وترحالهم، فقد نبغ منهم العلماء والأدباء الذين تولوا

[1]–حوتية محمد، المرجع السابق، ص 169.

[2]–أحمد حسن، المرجع السابق، ص 236.

مناصب القضاء والإفتاء والتدريس وإدارة الزوايا سواء داخل إقليم توات أو في بلاد السودان الغربي.

رابعاً:

استفادة أهل توات منذ تاريخهم المبكر من موقع إقليمهم الوسطي في تجارة الصحراء، فربطوا أسواق شمال المغرب العربي بأسواق السودان الغربي عن طريق قوافلهم الذاهبة والآيبة داخل الصحراء الكبرى، في نفس الوقت عكف مشايخهم داخل الزوايا والمساجد على أحياء علوم الدين واللغة، وقد مكنهم ذلك من المساهمة في مد شعوب السودان الغربي بتيار من الثقافة الإسلامية ابتداء من القرن التاسع الهجري / الخامس عشر ميلادي.

خامساً:

ارتبط أهل توات بالمذهب المالكي وبالطريقة القادرية فحملوا لواءها إلى بلاد السودان فاستطاعوا بهما أن يزيدوا من توثيق الروابط بين سكان السودان الغربي وسكان الشمال من خلال الوحدة المذهبية والطريقة.

المصادر المطبوعة :

1 – البرتلي (أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الصديق)

فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور،تحقيق ،محمد إبراهيم الكتاني ومحمد حجي ،دار المغرب الإسلامي، بيروت،1981م

2– السعدي (عبد الرحمن بن عبد الله)**تاريخ السودان**، طبعة هوداس،1946م.

3– سيدي محمد بن بناهي**نماذج من تاريخ أسرة آل حبت**، طبعة تونس،1987م.

4– الفشتالي (أبو فارس عبد العزيز)**مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا**، تحقيق، عبد الكريم كريم، الرباط،1972م.

5– فوذي (محمد بلوبن عثمان)**إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور**، دار مطابع الشعب، القاهرة،مصر ، 1964م.

قائمة المراجع العربية :

1– أحمد حسن محمود **الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا**، القاهرة، 1963م.

2 أحمد محمد كاني **الجهاد الإسلامي في غرب إفريقيا**، طبعة الزهراء للإعلام العربي، مصر ، 1987م

3– آرنولد توماس **الدعوة إلى الإسلام**، ترجمة ،حسن إبراهيم حسن، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، مصر، 1957م.

5– حوتية محمد صالح ،قبيلة كنتة بين إقليمي توات و الأزواد رسالة ماجسترفي التاريخ الحديث و المعاصر، جامعة الجزائر، 1992– 1993م

6– حسن إبراهيم حسن

انتشار الإسلام في القارة الإفريقية ، طبعة ثالثة ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ،مصر ، 1984م

8– خليل النحوي

بلاد شنقيط، المنظمة العربية للتربية و الثقافة تونس،1987م

9– دولافوس

حضارة إفريقيا الغربية، ترجمة، أحمد الوسيعي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1975م

10– ريمون فيرون الصحراء الكبرى، ترجمة ،جمال الدين الدناصوري، القاهرة، مصر، 1963م.

11– زاهر رياض **المملكة الإسلامية في غرب إفريقيا وأثرها في تجارة الذهب عبر الصحراء الكبرى**، مكتبة الأنجلو مصرية ،القاهرة، مصر ،1968م.

12– زبادية عبد القادر **الحضارة العربية و التأثر الأوروبي في إفريقيا الغربية و جنوب الصحراء**، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1989م.

14– شلبي أحمد **موسوعة التاريخ الإسلامي و الحضارة الإسلامية**، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر، 1983.

15– الشيخ أنتاديوب **إفريقيا قبل الاستعمار**، طبعة بيروت، بدون تاريخ.

16– الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيدي مختار الكبير، **رسالة إلى أحمد لب**، مركز أحمد بابا تمبكتو، رقم 289

17– عباس الجواري**ثقافة الصحراء**، طبعة تونس، 1987م.

18– العربي إسماعيل **الصحراء الكبرى وشواطئها**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر،1983م.

19– فرج محمد فرج**إقليم توات خلال القرنين الثامن عشر**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1977م.